المحاضرة الأولى/ الأحد/ 15/3/2020

السنة الرابعة

ابن طفيل - قصة حي ابن يقظان

الحكمة المشرقية

د. رائده الدالي

تمهيد ابن طفيل لقصة حي ابن يقظان:

افتتح ابن طفيل قصته حي ابن يقظان بالقول:

"سألت أيها الكريم الصفي الحميم- منحك الله البقاء الأبدي وأسعدك السعد السرمدي- أن أبثّ إليك ما أمكنني بثه من أسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها الشيخ الإمام الرئيس أبو علي بن سينا. فاعلم أن من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجدّ في اقتنائها".

1- قد يكون السائل شخصاً خيالياً لا وجود له في الواقع، افترضه ابن طفيل ليضع كتاباً يحتوي على فلسفته في شكل رسالة.
2- يطلق ابن طفيل صفة الإمام بالإضافة إلى لقب ابن سينا الشيخ الرئيس الذي عرف به. وهذا يدل على علو مكانة ابن سينا عند ابن طفيل.
3- يقتبس ابن طفيل قول ابن سينا الذي ورد في مقدمة كتاب الشفاء "المنطق" حيث أشار ابن سينا أنه قد وضع كتابا في الحكمة المشرقية فيقول ابن سينا"من أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد في اقتنائها".
4- يصرح ابن طفيل أن هذه الرسالة التي تحمل عنوان حي ابن يقظان تحمل أسراراً من أسرار الحكمة المشرقية الذي وضعه ابن سينا.

<u>ما هو كتاب الحكمة المشرقية الضائع؟</u>

صرح ابن سينا في ثلاثة مواضع على الأقل بأنه وضع كتاباً في الحكمة المشرقية.

في تفسيره كتاب "أثولوجيا"، وفي مقدمة موسوعته الشفاء"المنطق"، وفي مقدمة كتابه "منطق المشرقيين".

<u>أولاً: في تفسير ابن سينا كتاب أثولوجيا</u>:

يحيل ابن سينا القاريء في هذا الكتاب إلى كتاب الحكمة المشرقية في ست مرات:

1- في كلامه عن إمكانية تجرد النفس من المادة وبقاء الهيئات مطبوعة فيها بلا توسط مادة يقول: الجواب عن ذلك **إحالة على الحكمة المشرقية.**

2- في الكلام عن تجرد النفس وشوقها للاتصال بملكوت الله من دون أن تبيد ببيد بدنها يقول"الترحم على الموتى هو من جنس استمداد الفيض الالهي بالادعية. **وتطلب في الحكمة المشرقية.**

3- في الكلام عن ذكريات النفس بعد مفارقتها للبدن ودخولها في عالم المعقولات حيث تنعتق من الذكريات الجزئية والأشياء الدنية ولا يعود لها من إدراك وشوق إلى إدراك"حقيقة ذات الأول" إلا أن يكون كلياً: وأما الكلام الفصل فيها فليتأمل **في الحكمة المشرقية.وأنه كيف** يجب أن يقال في إدراك العقل لما فوقه.

4- في الكلام عن الوحدة والكثرة في عالم المعقولات العلويّة يقول: **على ما فُصّل في الحكمة المشرقية خاصة.**

5- في الكلام عن "المُبدَع" الذي وجوده من شيء آخر وله من نفسه ألا يكون له وجود ومن جانب الحق الأول الوجود" وأما أن الإمكان كيف يكون من لوازم الماهيات، وهل يدخل مع ذلك في الإبداع أم لا يدخل...**فقد شُرح في الحكمة المشرقية.**

6- في العودة إلى تذكر النفس التي قد يجوز لها التذكر في عالم المعقولات المحض أن تتذكر شيئاً. وأما أنه كيف يجوز، وبتوسط ماذا يكون، **فليطلب من الحكمة المشرقية.**

ثانياً: في كتاب المنطق موسوعة الشفاء:

يقول ولي كتاب غير هذين الكتابين أوردت فيه الفلسفة على ما هي بالطبع، وعلى ما يوجبه الرأي الصريح الذي لا يراعى فيه جانب الشركاء في الصناعة، ولا يتقى فيه من شق عصاهم ما يتقى في غيره، وهو كتابي في "الفلسفة المشرقية" وأما هذا الكتاب فأكثر بسطاً، وأشد مع الشركاء من المشائين مساعدة، ومن أراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بطلب ذلك الكتاب. ومن أراد الحق على طريق فيه ترض ما إلى الشركاء وبسط كثير وتلويح بما لو فطن له استغنى عن الكتاب الآخر فعليه بهذا الكتاب.

ثالثاً: مضمون كتاب منطق المشرقيين:

وما جمعنا هذا الكتاب لنظهره إلا لأنفسنا- أعني الذين يقومون منا مقام أنفسنا- وأما العامة من مزاولي هذا الشأن فقد أعطيناهم في كتاب الشفاء ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم وسنعطيهم في اللواحق ما يصلح لهم زيادة على ما أخذوه وعلى كل حال فالاستعانة بالله وحده.

السؤال: ما هي الحكمة المشرقية التي يريد ابن طفيل بيان أسرارها؟

شكل كتاب الحكمة المشرقية الضائع لابن سينا إشكالا شغل المستشرقين لعدة قرون، وبعد أن ترجمت قصة حي ابن يقظان في القرن السابع عشر، تتابعت الترجمة لهذه القصة إلى عدة لغات وتعددت آراء المستشرقين في بيان المقصود من الحكمة المشرقية.

- منهم من ترجم لفظ مشرقية بمعنى **شرقية** إحالة إلى فلسفة الهند. وبهذا المعنى يكون ابن سينا بحث فلسفة الشرقيين وقارنها بتعاليم المشائين.
- منهم من نفى هذا التفسير ورجح أنها تعني **حكمة الإشراق** التي قال بها بعض المتصوفة المسلمين بالتواصل مع الأفلاطونية المحدثة والإحالة إلى ما كان يسميه الإغريق **الحكمة الكلدانية.** وإلى هنا بقيت الفلسفة المشرقية تعني **فلسفة الإشراق.**
- **منهم من أكد المرادفة بين حكمة الإشراق والفلسفة المشرقية ولاحظ علاقة اشتقاقية بين الشرق والمشرق والإشراق.** وعلى ذلك بنى التمييز بين الفلسفة اليونانية بطابعها المشائي، وبين المذاهب الشرقية التي خالطتها من خلال مدرسة الإسكندرية الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة.
- منهم من وافق على المرادفة بين إشراق ومشرقي لكنه ترجم اللفظ **بـ روحاني. أسرار الحكمة الروحانية.**

استمر الخلاف بين المستشرقين حول ترجمة عنوان كتاب ابن سينا الضائع، فوضعت المؤلفات الصغيرة والرسائل الصوفية المنسوبة إلى ابن سينا تحت عنوان **رسائل في الحكمة المشرقية**.

حيث ميز غولدز تهكير عام 1909 بين كتب ابن سينا الأرسطوطاليسية وبين رسائله الصوفية.

- أما كارادي فو أصر على **المرادفة بين مُشرق واشراقي** ورفض المرادفة بين **مَشرقية وإشرافية**. وقال من الخطأ قراءة شرقية بفتح الميم ، ونسب التسمية إلى تلاميذ ابن سينا الذين أرادوا الانحراف بمذهبه باتجاه الكلدانية الوثنية أو الصوفية الهندية.
- أما غوتيه رأى أن المشرقية بفتح الميم وبمعنى الشرقية تطلق على الصوفية الفارسية والهندية حصراً. دون حكمة الإشراق التي تبقى بطبيعتها الفلسفية أقرب إلى الأفلاطونية المحدثة.يرى غوتيه أنه يجب التفريق بين ثلاثة أنواع من المذاهب الصوفية في الإسلام وهي:

1- التصوف الديني المحض الذي لا يخرج عن حدود السنة الإسلامية والذي يمثل اتجاه بعض المتعبدين إلى حياة الزهد والتقشف والتأمل، كما هي الحال عند كبار الأولياء والصالحين من المسلمين.
2- التصوف الفارسي أو الهندي الذي نراه عند بعض المتحمسين أمثال الحلاج والذي يتعارض قليلاً أو كثيراً مع الإسلام لأنه ينتهي في الحقيقة إلى مذهب وحدة الوجود.
3- التصوف حسب الأفلاطونية الحديثة.

إن صفة المشرقي يمكن أن تطلق على كل واحد من هذه الأنواع الثلاثة: إلا أنه ينبغي إهمال الطريقة الأولى لأنها ليست سوى عبادة دينية محضة لا نستطيع اعتبارها مذهباً فلسفيا ولا يمكن أن نسميها بالحكمة المشرقية.

وإذا أردنا أن اشتقاق صفة الشرقي من بلاد الشرق فإنها لا يمكن أن تنطبق إلا على الطريقة الثانية المقتبسة من الفرس والهند.

ويقول إن كتاب العربية لم يبينو لنا كيف نقرأ مشرقي بضم الميم أم بفتحها إلا أن الكثيرين منهم يستخدمون تعبيراً مرادفا لمعنى الحكمة المشرقية وهو قولهم حكمة الإشراق وبديهي أن أن الإشراق هنا يفيد الإضاءة أي الكشف أو الانكشاف والصفة منه المُشرق أي بالضم.

أما الحاجي خليفة صاحب كتاب كشف الظنون يعرف حكمة الإشراق بقوله:

"إن حكمة الإشراق تؤلف قسماً من الفلسفة العامة وأنها تلعب هنا نفس الدور الذي تلعبه الطريقة الصوفية في الديانة الإسلامية فإنه كما تنقسم الفلسفة إلى الحكمة الطبيعية والحكمة الإلهية، نستطيع أن نفرق في الدين الإسلامي بين علم الكلام وبين الطريقة الصوفية.

إن غاية الدين والفلسفة واحدة لا تخرج عن معرفة الخير المطلق" إلا أن هذه المعرفة يمكن الوصول إليها عن طريقين:

1- إما بالتفكير 2- وإما بالكشف(الرياضة الصوفية) وعند السعي لمعرفة الإله عن طريق التفكير يختلف علماء الكلام عن الفلاسفة العقليين إذ أن الفريق الأول يتمسك في ذلك بتعاليم نبي مرسل، بينما الفريق الثاني لا يستند إلا على اليقين العقلي ويسمى الفريق الأول بالمتكلمين، والثاني بالحكماء المشائين. وكذلك في

الطريقة الثانية القائمة على الكشف الباطني يختلف المتصوفة الذين يتبعون الدين عن الحكماء الإشراقيين الذين لا يتقيدون بالديانات المنزلة.

2- يظهر أن تعبير الحكمة المشرقية إنما ينطبق على قسم من الفلاسفة ونعني بهم فلاسفة الأفلاطونية الحديثة(الإشراقيين) أتباع أفلاطون. أما أتباع أرسطو من الفلاسفة فيطلق عليهم المشائيين.

- الألماني ماكس هورتن عام 1913 اعتبر أن الحكمة المشرقية محاولة من ابن سينا الذي كان عميق العاطفة الدينية في رأيه لكي يطبع فلسفة أرسطو ذات الطابع الوثني بطابع إسلامي **فيرى** أن الحكمة المشرقية ترمي إلى معرفة الله عن طريق الوجدان والذوق في مقابل الفلسفة الدقيقة التي تستخدم البرهان وتسير على منهج استدلالي.**فالحقيقة شيء يشرق للعقل فهي مُشرقة، ويشرق الله للصوفي فهو مُشرق. ومن يستخدم اللفظ للدلالة على مذهب مُشرقي أي صوفي أو فيلسوف الإشراق في مقابل الفيلسوف الذي يستخدم البرهان.**
- ج.دي بو الإشراقيين هم أتباع حكمة الإشراق أو الحكمة المُشرقية أما مُشرقية فمعناها شرقية.
- الإيطالي نيلنو وضع تساؤل في مقال له حول "حكمة ابن سينا المشرقية أو الاشراقية" عرض فيه سؤالين:

الأول: هل فلسفة ابن سينا مَشرقية أم مُشرقية؟

لم يوجد طائفة عرفت باسم المُشرقة لينسب إليها مُشرقي.

الثاني: هل هذه الفلسفة المشرقية شرقية أم إشراقية؟

فلسفة ابن سينا الصوفية لا تمت بصلة إلى حكمة الإشراق فلا صلة بين السهروردي وابن سينا والفارابي وإن كان القاسم المشترك بينهم الأفلاطونية المحدثة.

حيث يؤكد أن حكمة الإشراق للسهروردي مبنية على تقاليد غنوصية قديمية وعلوم مستورة نماها صابئة حران، غنوصية نورانية خلطت بعناصر ذات طابع إيراني من الديانة الزرادشتية. وأن هرمس، و عاذيمون، وفيثاغورث حجة في كتب العلوم المستورة.

أما لويس غارديه في سلسلة دراسات عن ابن سينا 1951 "فكر ابن سينا الديني" رأى أن **الشرق هو المكان الذي يطلع منه النور** اعتمد على تفسير سورة النور. عالم المعقولات، أما المغرب أشار ابن سينا إلى أنه عالم الظلمات والجدب والهيولى.

في وصف فلسفة ابن سينا المشرقية.

- كريستيان جامبيه يقول:الفلسفة المشرقية لو لم توجد عند ابن سينا لكان يجب اختراعها، فهي تروي عطش جميع الظامئين إلى الروح أو الغنوص الإشراقي. ابن سينا للنفس الالهية لا النفس الفيزيقية أراد إعطاء المؤمنين بالنظر الفلسفي المعنى الخفي والحقيقة المستورة للوحي الإلهي...فهي مفتوحة للتأويل.
- أما سبينوزا يقول: ما هي علم للوجود هي علم الأشكال العليا للوجود...فلسفة روحية لعصر بلا روح.

مطلوب السائل:

يرى ابن طفيل أن مطلوب السائل لا يتعدى أحد غرضين:

<u>الغرض الأول:</u>

إما أن يكون سؤاله عما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق والحضور في طور الولاية.

وهذا لا يمكن اثباته على حقيقة أمره في كتاب....والا استحالت حقيقته وصار من قبيل القسم النظري..لأنه متى قرب من عالم الشهادة لم يبق كما كان عليه بوجه ولا حال واختلفت العبارات فيه اختلافاً كثيراً وزلت به أقدام قوم عن الصراط المستقيم" وهنا يشير ابن طفيل إلى المتصوفة الذين غلب عليهم الشطح من أمثال الجنيد والبسطامي والحلاج الذين أرادوا أن يعبروا عن تلك الحال بما نالهم من البهجة والسرور فباحوا بها مجملة دون تفصيل..فوصفهم ابن طفيل بأنهم ممن لم تحذقهم العلوم فقالوا بها من دون تحصيل.

ونقد ابن طفيل لهؤلاء العارفين قريب من نقد الغزالي الذي بقي في إطار العقيدة بعيداً عن الشطح فيقول الغزالي:

العارفين، صار لهم العروج إلى سماء الحقيقة ذوقاً وحالاً وانتفت عنهم الكثرة بالكلية و استغرقوا بالفردانية المحضة فلم يبقى عندهم إلا الله. فسكروا سكراً وقع دونه سلطان عقولهم فقال بعضهم"ليس في الجبة غير الله" وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا

يحكى، فلما خفّ عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد".

لكن ابن طفيل يستثني قوماً ظن أن أقدامهم زلت وهي لم تزل. وإنما كان ذلك لأنه أمر لانهاية له في حضرة متسعة الأكناف، محيطة غير محاط بها. وهذه الحال التي أشار إليها ابن سينا بقوله"ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط، وإن لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة وهناك يحق الوصول". **حيث لا اتحاد ولا حلول.** في ذلك المقام الذي وصل إليه حي ابن يقظان في آخر المراتب وهو مقام (مقام أولي الصدق) كما وسمه ابن طفيل. ومن قبل وسمه ابن سينا بأنه مقام الصديقين.وبهذا يتبنى ابن طفيل موقف ابن سينا الذي نفى إمكانية الاتحاد بين العاقل والمعقول. وبالتالي نفي الأساس الذي تقوم عليه التجربة الصوفية.

<u>الغرض الثاني:</u>

أن يكون السائل يبتغي التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر.

وهذا شيء يحتمل أن يوضع في الكتب وتتصرف به العبارات، ولكنه أعدم من الكبريت الأحمر لاسيما في هذا الصقع الذي نحن فيه". اشارة من ابن طفيل إلى رفض الفلسفة والاشتغال فيها في المغرب العربي حتى أنها من الندرة وإن وجدت على صعيد الأفراد، وتكون سرا ولا يتكلم بها إلا رمزاً. فيقول:"إن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه.

ثم يشير إلى أن كتب أرسطو وكتب الفارابي وكتاب الشفاء لابن سينا لا تفي بهذا الغرض ولم يكتب بها أحد من أهل الفطر الفائقة، قبل شيوع المنطق والفلسفة فيها.ويمكن ترتيب العلوم في الأندلس بحسب ما أخبر به ابن طفيل:

علوم التعاليم- ثم دخول المنطق وبحسب ابن طفيل لم يفضي بهم علم المنطق إلى الكمال. ثم بعد ذلك يشير إلى أهمية ابن باجة في زمانه بقوله:" ولم يكن فيهم أثقب ذهنا ولا أصح نظرا ولا أصدق رؤية من أبي بكر ابن الصائغ غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته". وأما من جاء بعده من معاصرين ابن طفيل فهم في حد التزايد أو الوقوف على غير كمال، أو ممن لم تصل إلينا حقيقة أمره.